البناء الفنى وعناصر الفكاهة فى "قصة أهل البصرة من المسجديين" للجاحظ

أولاً: عرض:

قصة أهل البصرة من المسجديين للجاحظ(*)

قال أصحابنا من المسجديين[1]:

اجتمع ناسٌ فى المسجد، ممن ينتحل[2] الاقتصاد فى النفقة، والتثمير[3] للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب، وكالحلف[4] الذى يجمع على التناصر، وكانوا إذا التقوا فى حِلَقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارَسوه، التماسًا للفائدة، واستمتاعًا بذكره.

فقال شيخ منهم:

ماء بئرنا – كما قد علمتم – مالح أُجاج[5]، لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفى تكلف العذب علينا مؤونة[6]. فكنا نمزج منه للحمار، فاعتل منه[7] وانتقض[8] علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفًا[9]. وكنت أنا والنعجة[10] كثيرًا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى[11] جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار. فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلاً. ثم انفتح لى

(*) الجاحظ (163- 255هـ) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثى، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب. مولده ووفاته فى البصرة. فلج فى آخر عمره. وكان مشوّه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها الحيوان، والبيان والتبيين والبخلاء.
ولأبى حيان التوحيدى كتاب فى أخباره سماه "تقريظ الجاحظ" اطلع عليه ياقوت الحموى. انظر فى هذا: الأعلام 74/5. وهذه القصة فى كتاب البخلاء للجاحظ. تحقيق: د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط5، ص29-34.

(1) المسجديون: هم جماعة من البخلاء كانوا يجتمعون بأحد المساجد فى البصرة ليتدارسوا أمور البخل.

(2) ينتحل: يتخذ.

(3) التثمير: التكثير.

(4) الحلف: العهد.

(5) مالح أجاج: شديد الملوحة.

(6) مؤونة: مشقة.

(7) اعتل: مرض.

(8) انتقض علينا: عصانا.

(9) صرفًا: خالصًا غير ممزوج بماء البئر المالح.

(10) النعجة: يقصد زوجته.

(11) يعترى: يصيب.

فيه بابٌ من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضأ [1]، فجعلت فى ناحية منه حفرة، وصهرجتها [2] وملستها، حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها المسيل [3]، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيًا لم يخالطه شيء. ولولا التعبد لكان جلد المتغوِّط أحق بالنتن من جلد الجنب، فمقادير طيب الجلود واحدة، والماء على حاله. والحمار أيضًا لا تقزز له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج فى سقيه منه. وما علمنا أن كتابًا حرمه ولا سنة نهت عنه فربحنا هذه منذ أيام، وأسقطنا مؤنة عن النفس والمال.

قال القوم: هذا بتوفيق الله ومنه.

فأقبل عليهم شيخ فقال:

هل شعرتم بموت مريم الصنَّاع [4]؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل، ولكنى أخبركم عن واحدة فيها كفاية. قالوا: وما هى ؟ قال:

زوَّجتْ ابنتها، وهى بنت اثنتى عشرة سنة، فحلَّتها [5] الذهب والفضة وكستها المروىَّ [6] والوَشْى [7] والقَزّ [8] والخز [9] وعلَّقت المعصفَر [10]، ودقَّتْ الطيب [11]، وعظَّمت أمرها فى عين الختَن [12]، ورفعت من قدرها عند الأحماء [13]. فقال لها زوجها: أنى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله. قال: دعى عنك الجملة وهاتى التفسير، والله ما كنت ذا مال قديمًا ولا ورثته حديثًا، وما أنت بخائنة فى نفسك ولا فى

---

(1) المتوضأ: اسم مكان الوضوء.
(2) صهرجتها: أى عملتها بالصاروج، وهو القطران.
(3) المسيل: اسم مكان من سال.
(4) الصنَّاع: أى الماهرة بعمل يديها.
(5) حلتها: زينتها.
(6) المروىّ: ثياب تنسب إلى مرو.
(7) الوشى: الثوب المنقوش.
(8) القز: الحرير.
(9) الخز: ثياب تصنع من وبر الأرنب.
(10) علقت المعصفر: أى علقت لها الستائر المصبوغة بالعصفر.
(11) الطيب: العطر.
(12) الختن: من كان من طرف المرأة كالأب والخال والعم.
(13) الأحماء: من كان من ناحية الزوج كالأب والأخ.

مال بعلك( )، إلا أن تكونى قد وقعت على كنز. وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عنى مؤنة وكفيتنى هذه النائبة. قالت: اعلم أنى منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حَفنة ( )، وكنا – كما قد علمت – نخبز فى كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكُّوك ( ) بعته. قال زوجها: ثبت الله رأيك وأرشدك، ولقد أسعد الله من كنت له سكنًا، وبارك لمن جعلت له إلفًا. ولهذا وشبهه قال رسول الله ﷺ - : من الذوْد إلى الذوْد إبل( ). وإنى لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح، وعلى مذهبك المحمود. وما فرحى بهذا منكِ بأشد من فرحى بما يثبت الله بك فى عقبى من هذه الطريقة المرضية.

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلَّوا عليها. ثم انكفئوا ( ) إلى زوجها فعزوه على مصيبته. وشاركوه فى حزنه.

ثم اندفع شيخ منهم فقال:

يا قوم لا تحقروا صغار الأمور، فإن أول كل كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظم صغيرًا عظمه وأن يكثر قليلاً كثره. وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟ وهل الدرهم إلا قيراط إلى جنب قيراط؟ أوليس كذلك رمل عالج ( ) وماء البحر؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من ههنا ودرهم من ههنا. قد رأيت صاحب سَقَط ( ) قد اعتقد مائة جَريب( ) فى أرض العرب. ولرما رأيته يبيع الفُلفل بقيراط والحِمَّص بقيراط، فأعلم أنه لم يربح فى ذلك الفلفل إلا الحبة ( ) والحبتين من خشب الفلفل، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب.

( ) بعلك: زوجك.

( ) حفنة: ملء الكفين.

( ) مكّوك: هو مكيال ليس هناك اتفاق على مقداره.

( ) يقال: إن هذا ليس حديثًا، ومعناه: القليل مع القليل يكون كثيرًا. وذكر أبو هلال العسكرى هذه العبارة على أنها مثل من الأمثال العربية. انظر: جمهرة الأمثال. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش. بيروت، دار الفكر، ط2، 1988م، 458/1.

( ) انكفئوا: عادوا.

( ) عالج: اسم مكان ببادية العرب معروف بكثرة الرمال التى فيه.

( ) رأيت صاحب سقط: لعله يعنى بائعًا متجولاً.

( ) الجريب: القطعة المتميزة من الأرض.

( ) الحبة: جزء من الدرهم.

ثم قال: اشتكيت أيامًا صدرى، من سُعال كان أصابنى. فأمرنى قوم بالفانيذ( ) السكرى، وأشار على آخرون بالخزيرة تتخذ من النشاشتج والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك. فاستثقلت المؤنة ( ) وكرهت الكلفة ورجوت العافية. فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين: عليك بماء النُّخالة ( )، فاحسه حارًّا ( ). فحسوت، فإذا هو طيب جدًّا، وإذا هو يعصم( ). فما جعت ولا اشتهيت الغداء فى ذلك اليوم إلى الظهر. ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى، حتى قاربت العصر. فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى، طويت العشاء( ) وعرفت قصدى( ).

فقلت للعجوز: لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة؟ فإن ماءها جِلاء للصدر وقُوتَها غذاء وعصمة، ثم تجففين بعدُ النخالة، فتعود كما كانت، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأول، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين. قالت: أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك.

وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق.

قال القوم: صدقت: مثل هذا [لا] يكسب بالرأى، ولا يكون إلا سماويًّا.

ثم أقبل عليهم شيخ آخر فقال:

كنا نلقى من الحُرَّاق ( ) والقَدَّاحة ( ) جَهدًا؛ لأن الحجارة كانت – إذا انكسرت حروفها واستدارت ( ) – كَلَّتْ ولم تقدح قدح خير، وأصلدت( ) فلم تور ( ). وربما أعجلنا المطر والوَكف ( ). وقد كان

( ) الفانيذ: نوع من الحلوى، وهى كلمة فارسية معربة.
( ) المؤنة: الكُلْفَة.
( ) النخالة: هى غير اللباب مما نخل.
( ) احسه: اشربه.
( ) يعصم: يُذهب الإحساس بالجوع.
( ) طويت العشاء: لم أتناول طعام العشاء.
( ) عرفت قصدى: أى عرفت طريقتى فى ترك العشاء.
( ) الحراق: ما تقع فيه النار عند القدح، مثل عود أو قطعة من خشب.
( ) القداحة: الحجر الذى تقدح به النار.
( ) استدارت: صارت حروفها غير حادة.
( ) أصلدت: صوتت.

الحجر أيضًا يأخذ من حروف القَدَّاحة حتى يدعها كالقوس، فكنتُ أشترى المرقشينا(3) بالغلاء والقداحة الغليظة بالثمن الموجع. وكان علينا أيضًا فى صنعة الحُرَّاق وفى معالجة العُطْبَة مُؤنة، وله ريح كريهة. والحراق لا يجيء من الخرق المصبوغة، ولا من الخرق الوسِخة، ولا من الكتان، ولا من الخُلقان(4). فكنا نشتريه بأغلى الثمن. فتذاكرنا منذ أيام أهل البدو والأعراب، وقدحهم النار بالمَرْخ (5) والعَفَار (6)، فزعم لنا صديقنا الثورىّ، وهو – ما علمت – أحد المرشدين: أن عراجين الأعذاق (7) تنوب عن ذلك أجمع، وعلمنى كيف تعالج. ونحن نؤتى بها من أرضنا بلا كلفة. فالخادم اليوم لا تقدح ولا تورى إلا بالعُرْجون.

قال القوم: قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة، ولهذا ما قال الأول: مذاكرة الرجال تلقح الألباب(8).

ثم اندفع شيخ منهم فقال:

لم أر فى وضع الأمور مواضعها وفى توفيتها غاية حقوقها، كمُعَاذَة العنبرية. قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال:

أهدى إليها العام ابن عم لها أُضْحِيَّة (9). فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة، فقلت لها: ما لك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة وليس لى قيِّم(10)، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى. وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه. وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها. وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئًا لا منفعة فيه. ولكن المرء يعجز لا محالة. ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير.

---

(1) لم تور: لم تخرج نارًا.
(2) الوكف: المطر.
(3) المرقشينا: نوع من الحديد.
(4) الخلقان: الثياب البالية.
(5) المرخ: شجر سريع إخراج النار عند حكه.
(6) العفار: شجر يتخذ منه الزناد.
(7) الأعذاق: مفردها عذق، وهو عنقود النخلة.
(8) تلقح الألباب: تفيد العقول.
(9) أضحية: الشاة التى تذبح يوم الأضحى.
(10) قيم: أى من يقوم بأمرى.

أما القرنُ فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخُطَّاف (1)، ويسمر فى جذع من أجذاع السقف، فيعلق عليه الزُّبُل (2) والكيران (3)، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير (4) وبنات وردان (5) والحيات وغير ذلك. وأما المصران (6) فإنه لأوتار المِندفة (7)، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قِحف (8) الرأس واللِّحيان (9) وسائر العظام فسبيله فسبيله أن يكسر بعد أن يُعرَق (10)، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم ير الناس وقودًا قط أصفى ولا أحسن لهبًا منه. وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب (11) فالجلد نفسه جراب. وللصوف وجوه لا تعد. وأما الفَرْثُ والبَعْرُ فحطب إذا جفف عجيب.

ثم قالت: بقى الآن علينا الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله ﷻ لم يحرم من الدم المسفوح (12) ألا أكله وشربه، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به، صار كَيَّة فى قلبى وقذًى (13) فى عينى، وهَمًّا لا يزال يعودنى.

قال: فلم ألبث أن رأيتها قد طَلَّقَتْ (14) وتبسمت. فقلت: ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم. قالت: أجل ذكرت أن عندى قدورًا (15) شامية جُدُدًا. وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها

---

(1) الخطاف: حديدة ملوية.
(2) الزبل: مفردها الزبيل، وهو القفة أو وعاء معين.
(3) الكيران: هو الرحل والمقصود به كل شىء يأخذه المسافر عند الرحيل من متاع وغيره.
(4) السنانير: القطط، والمفرد: السنور.
(5) بنات وردان: الصراصير.
(6) المصران: الأمعاء.
(7) المندفة: آلة يضرب بها القطن ليصبح رقيقًا.
(8) القحف: عظام أعلى الرأس، والجمع: أقحاف.
(9) اللحيان: مثنى لحى، وهو العظم الذى بالحنك وعليه الأسنان.
(10) يعرق: يأكل ما عليه من اللحم.
(11) الإهاب: الجلد قبل دبغه.
(12) المسفوح: السائل.
(13) القذى: ما يقع فى العين ويؤلمها.
(14) طلقت: انشرح صدرها.
(15) قدور: أوانى، والمفرد: قدر.

من التلطيخ بالدم الحار الدسم. وقد استرحت الآن، إذ وقع كل شيء موقعه.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد ( ) تلك؟ قالت بأبى أنت! لم يجئ وقت القديد بعد. لنا فى الشحم والألية والجُنُوب والعظم المعرق وفى غير ذلك معاش. ولكل شيء إبان( ).

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين.

ثانيًا: تحليل القصة

قصة "أهل البصرة من المسجديين" لها بناء فنى خاص، فهى فى بنائها تعتمد على الحكى المتتالى لحكايات مختلفة، ولكن يوجد بينها رابط يجمعها كما سوف نرى.

وهى قصة يمكن مسرحتها بسهولة؛ لأن عنصر الحوار هو الغالب عليها، وإن كان الحوار فيها أشبه بالمونولوجات الطويلة حين يقوم بعض الأشخاص فى هذه القصة برواية حكايات تتعلق بكيفية التوفير والاقتصاد فى المعيشة.

وسوف نهتم فى هذه الدراسة بالحديث عن أمرين: الأمر الأول طريقة بناء هذه القصة، وتوضيح عنصر الربط فيها. والأمر الآخر هو الحديث عن عناصر الفكاهة فى هذه القصة الطريفة.

طريقة بناء القصة

والقصة هنا لا تركز على حدث بعينه يتم تتبعه وتصاعده، ثم الوصول للأزمة فيه ثم ذروة الأزمة ثم الانفراجة، ولكن توجد بهذه القصة سلسلة حكايات متتالية كل حكاية منها يحكيها شخص فيها مصورًا مشكلة مرَّ هو نفسه بها، أو مشكلة مر بها شخص يعرفه. والمشكلة بالطبع تتعلق بكيفية الاقتصاد والتوفير، ومحاولة إيجاد حلول لأمور فى حياتنا تستدعى مزيدًا من النفقات التى يراها أبطال هذه القصة من

( ) القديد: اللحم المملح.

( ) إبَّان: وقت.

البخلاء عبئًا عليهم؛ ولذا يحاولون الوصول لحلول لهذه الأمور، للتوقف – أو على الأقل للتخفيف – عن الإنفاق على هذه الأمور.

ولكن هذه القصة ليست مجرد حكايات متتالية منفصلة بعضها عن بعض يروى كل شخص فيها حكاية منها، بل هناك رابط قوى بينها، فالشخص الذى حكى أول حكاية منها، وصور لنا من خلالها مشكلته، فى أنه يضطر لسقى حماره الماء العذب الذى يشتريه له؛ لأنه لا يشرب الماء المالح من البئر، وكذلك لا يشرب ماء البئر المالح الممزوج ببعض الماء العذب، وفى الوقت نفسه كان وزوجته يضطران للاغتسال بالماء العذب خشية الإصابة بالمرض لو اغتسلا بماء البئر المالح أو به ممزوجًا ببعض الماء العذب، وكان يؤلمه أن يرى الماء العذب الذى يغتسل به وزوجته تتشربه الأرض بعد أن يغتسلا به، وكذلك يؤلمه أن الحمار يكلفه شرب الماء العذب، وفى هذا نفقة كبيرة فى رأى ذلك البخيل، حتى هداه تفكيره لحل هذه المشكلة، من خلال حفر حفرة وصهرجتها، فكان وزوجته يغتسلان فيها، ثم يأتى الحمار فيشرب ذلك الماء الذى اغتسلا به وبقى فى هذه الحفرة المصهرجة.

نقول هذا الشخص هو الذى يربط بين أول القصة ونهايتها؛ لأنه عندما حكى حكايته، كان يظن نفسه قد أتى أعجوبة، بين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أهل الجمع والمنع – أى البخلاء من وجهة نظرنا نحن -، وقد استحسن المستعمون له فى هذه الحلقة صنيعه، وأثنوا عليه. ولكنه مع توالى حكى من بعده من الحضور فى هذه الحلقة، إذا به يكتشف أن هناك من هو أشد حرصًا منه، خاصة معاذة العنبرية التى حكى حكايتها الرَّاوى الأخير فى هذه القصة، فتلك البخيلة قد أُهديت إليها أضحية، وتبدو حزينة، ليس لكونها أهدى إليها، ولكن لأن زوجها الذى كان يعلم كيف تذبح هذه الشاة ويوضع كل عضو منها فى مكانه، ويحسن استخدامه – قد مات، أما هى فتخاف إن ذبحتها أن تُضيِّع بعضًا منها، ولا تحسن التصرف فيه، وحين يسألها هذا الراوى لحكايتها: ماذا ستفعل إذن؟ إذا بها تظهر خبيرة عليمة، تتحدث عن كل عضو فى الشاة، وتقول ماذا ستفعل به بعد ذبح الشاة بما فى ذلك الفرث والعظم الذى بها، فهما وقود جيد.

وتتحدث كيف أنها يمكنها أن تظل تأكل فيها طوال عام كامل، دون استخدام لوسائلنا الحديثة فى حفظ اللحوم كالثلاجات، بل بحكمتها وحسن تصرفها.

وينبهر ذلك الراوى لحكايتها بهذا التدبير الذى وضعته عند ذبح هذه الشاة، ويقول لها: إنك لم تتركى شيئًا فى الشاة وإلا وقد رأيت له نفعًا فما الذى يحزنك إذن؟

وعند ذلك تخبره أن الشىء الذى بقى فى الشاة ولم تعرف له استخدامًا حتى الآن هو الدم! وتقول له: إن الله لم يحرم من الدم إلا أكله وشربه ولكن له استخدامات حلال، وإلى أن أعرف نفع الدم سيظل هذا قذى فى عينى وكية فى صدرى.

ويظل ذلك الراوى لحكايتها يأتيها على فترات طويلة فيراها حزينة، ثم بعد مدة أتاها فرآها فرحة، مبتهجة، فقال لها: لعلك وجدت حلاً للدم، فتقول له: نعم لقد أهدى إلى قدور شامية وقد علمت أنه مما يجعلها تعود جديدة أن تطلخ بدم شاة، فأنا الآن فرحة قد زال عنى الهم.

وحين يسمع صاحب الحكاية الأولى هذه الحكاية – بشكل خاص – يدرك أنه قد أساء الظن فى نفسه؛ فليس هو مقتصدًا قديرًا إذا قورن بهذه المرأة على وجه الخصوص؛ ولهذا عليه أن يعيد النظر فى كل تصرفاته وأفعاله فلا شك أنه مسرف فيها أو فى بعضها؛ ولهذا نراه يمسك بغيظ قبضة من حصى ويضرب بها الأرض، ثم يقول: لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين.

إذن فقد ربط الجاحظ بين هذه الحكايات المتتالية، وجعل نهايتها مرتبطة ببدايتها، وكأن هذا الشخص صاحب الحمار، والذى بدأ التمثيل والحكى كان يظن نفسه سيد المقتصدين، ولكن حين سماعه كل حكاية – من بعده – من كل شخص يرويها ويمثلها بحركاته وإشاراته يرى نفسه أقل مما كان يظن فى نفسه.

ومع سماعه الحكاية الأخيرة لمعاذة العنبرية، يدرك أنه أقل المقتصدين شأنًا؛ ولهذا يلقى الحصى بيده على الأرض مغتاظًا، ويقرر أنه مفسد – أى مسرفًا – مقارنة بمن هم غيره ممن سمع حكاياتهم فى هذه الحلقة خاصة معاذة العنبرية.

عناصر الفكاهة بالقصة

لا شك أنها قصة فكاهية، نضحك من تصرفات هؤلاء البخلاء فيها الذين كانوا يجتمعون فى المسجد بصورة دائمة فى وقت معين لا ليتدارسوا فيه أمور الدين، بل ليتحدثوا عن أحدث الوسائل والأفكار التى من خلالها يمكنهم أن يقتصدوا فى حياتهم، ويوفروا بعض النفقات.

وهنا يكون اجتماعهم فى المسجد يمثل مفارقة مضحكة، ولعلهم يجتمعون فى المسجد؛ لأنهم يرون حديثهم عن طرق التوفير فى الإنفاق شيء ضرورى فى الحياة، ولعلهم يتبركون بجلوسهم فى المسجد للحديث فى هذا الأمر، عسى أن تزيد الفائدة عليهم من سماعهم لهذه الحكايات والنصائح التى بها فى هذا المكان المقدس.

وأيضًا يلفت نظرنا ويضحكنا فى الوقت نفسه استشهاداتهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال الزهاد التى يفسِّرونها من منطلق رغبتهم فى مزيد من الاقتصاد والتوفير، بل التضييق الشديد على أنفسهم ومن حولهم فى الإنفاق.

ونرى هذا الاتكاء على معنى بعض الآيات القرآنية فى حكاية مريم الصناع التى تستشهد خلال كلامها بمعانى بعض آيات من سورة مريم، وكذلك يستشهد زوجها بحديث نبوى شريف، –يبدو غير صحيح–.

وبالطبع تحاول هى وزوجها أن يصبغا على أفعالهما وأقوالهما – بهذه الاستشهادات – قداسة وأنها موافقة للدين، ولكننا ندرك أنهما بخيلان، يفسِّران الآيات والأحاديث حسب هواهما، ومن هنا لا نصدق تدينهما، بل ندرك أنهما بخيلان يغاليان فى بخلهما خاصة مريم الصناع؛ ولهذا نضحك من تصرفاتها، بل من تصرفات كل هؤلاء البخلاء – فى هذه القصة – الذين يتمسحون بالدين، ولكنهم فى الحقيقة لا يطبقون مبادئه فى الإنفاق فى وجوه البر، بل يغالون فى الاقتصاد فى الإنفاق حتى لنراهم من أشد الناس بخلاً؛ ولكنهم يخادعون الناس بأن يشيعوا عن أنفسهم أنهم مقتصدون، يراعون الدين فى النهى عن الإنفاق فى إسراف وبذخ.

أيضًا يضحكنا فى هؤلاء الأشخاص أن الحكايات التى يحكونها ويصوّرون من خلالها أزمات عانوا منها – أو عانى من حكوا عنه منها – تدور حول أمور لا نراها تستحق هذا العناء والتعب والشعور بالأزمة؛

فهى أمور لها حلول، وبعضها لا يستدعى النظر فيها، ولكنهم يرونها أزمات خطيرة؛ لأنها تتعرض لكيفية التوفير للمال، والخروج من هذه الأزمات بأقل نفقات، أو بغير نفقات، وربما بمكاسب أيضًا كحكاية ذلك الشخص الذى حدثنا عن ألم ألمَّ به فى صدره، وحين وُصف له كعلاج ماء اللوز وما شابهه مما رآه غالى الثمن، بالنسبة له كبخيل، ظل يتحامل على ألم صدره حتى وصف له بخيل مثله ماء النخالة الذى هو رخيص الثمن، وهو طعام ودواء فى الوقت نفسه، ثم له فائدة أخرى أنه يمكن بيع الحبوب التى غليت منه بعد تجفيفها، وهو أيضًا يمنع الشهية للطعام، فلا يتعشى من يشربه فى الغداء؛ ولهذا فرح به ذلك البخيل، واعتبرته زوجته البخيلة أنه شراب فيه بركة، فهو طعام ودواء، واعتبره باقى الأشخاص فى تلك الحلقة بالقصة شرابًا وفق الله له البخلاء وجاء بتكليف سماوى.

وأيضًا يضحكنا فى هذه القصة أن الحكايات التى بها، لا تبدو واقعية، فهى لا تُصوِّر لنا المجتمع البصرى كما كان فى القرن الثالث الهجرى، بل هى كأنها تصور لنا أناسًا من كوكب غريب عن الأرض، يشكلون ما يشبه النقابة، والذى جمعهم، هو الرغبة فى الجمع والمنع أى جمع المال وعدم إنفاقه، والبحث عن كل سبل جديدة لتوفيره، بأى وجه من الوجوه، وتلك الحكايات التى يحكيها البخلاء الذين بهذه القصة نرى فيها تطرفًا فى البخل، خاصة حكاية معاذة العنبرية؛ ولذا نظن كأنهم يتحدثون إلينا من كوكب غريب عن الأرض، إنهم مرضى بحب البخل، ولكنهم لا يرون أنفسهم مرضى بهذا المرض، بل يرون غيرهم ممن ينفقون على أمور الحياة العادية هم المرضى؛ ولهذا يطلقون عليهم – أى علينا لأننا لسنا من عالمهم – اسم المسرفين، ويتحصّنون باجتماعهم مع أنفسهم
– تقريبًا – كل يوم، ليزدادوا معرفة بكل ما هو جديد فى عالم البخل، وفى الوقت نفسه يشد بعضهم من أزر بعض فى التعايش فى هذا الكوكب الغريب عليهم ألا وهو الأرض.

ومن هنا فيبدو على هذه القصة الطابع الفنتازى -إلى حد ما-، وإن جاء فى مسوح واقعية بالحديث عن مشاكل تحدث لهم فى حياتهم، ولكنها – كما قلنا – مشاكل لا يهتم بها إلا أمثالهم ممن يعشقون البخل وعدم الإنفاق؛ ولذا وصفتهم بأنهم كأنهم يعيشون فى كوكب آخر، وبدا على هذه القصة لهذا أنها تأخذ الطابع الفنتازى إلى حد ما.